مجلة المهاجر

العدد : ٢٠٧ الموافق في ذو القعدة ١٤١٩ هجري ٣ / ١٩٩٩ ميلادي

كلمات في الصميم : لا تكذبوا على الله !	بقلم : د. صلاح الدين بن إبراهيم

حضرت لقاء دار فيه نقاش حاد بين أخوين يتهم أحدهما الآخر بـ **" مولاة الكفار" .**

قال المتهَم : ما دليك على دعواك ؟! .

قال المدعي : ألم تقل لجارتك غير المسلمة : سأغيب عن البيت يوماً ، وأرجو أن تعتني بزوجتي ، فإذا احتاجت إلى شيء ، فآمل أن تلقى منك العون ؟!!.

قال المتهَم : نعم ، ولكن زوجتي عاقلة ، وهذه الجارة أرملة وعندها بنتان في سن الشباب ، وما فعلته إنما هو من حسن التعامل مع الجيران ، فأنا أساعدهم في أمور كثيرة ، وبين أسرتي وهذه الأسرة احترام متبادل على الرغم من اختلاف الدين .

قال المدعي : أما تعلم أنك حين طلبت من جارتك أن تهتم بزوجتك قد جعلت كافرة ولية أمر زوجتك ؟! .

قال المتهم : لم أصل بعد إلى هذا المستوى من الفهم !، فزوجتي مستقلة في تصرفاتها ، وكل ما في الأمر هو أنني لفت انتباه الجارة إلى المساعدة عند الحاجة . وإذا كان هذا فهمك للعلاقة مع غير المسلمين ، فعليك أن تجمع أمتعتك وترحل من أوروبا ، لأن قدومك إليها يتضمن عهداً بأن الحكومة هي ولية الأمر في هذه البلاد !! .

لم يقبل المدعي كلام المتهم ، وقابله بالسخرية ، وهنا تدخل أحد الحاضرين فقال : لقد علمنا ما حدث بين (فلان) وجارته غير المسلمة ، فهلا تفضل المعترض عليه بذكر الدليل الشرعي الذي يبين حكم الله تعالى في هذه الواقعة ؟

فأجاب المدعي : لا أرى فائدة من ذكر الأدلة إذا كانا سنختلف في فهمها

قال السائل : ولمَ تفترض الاختلاف قبل إيراد الدليل ؟! ؛ فإن كان الدليل قطعي الدلالة كانت حجتك بالغة ، وإن كان ظني الدلالة فإنه يلزمك أن ترجح بين أقوال أهل العلم بمرجح ، وإن كانت أوهامك وتخيلاتك - بصرف النظر عن بواعثها وأسبابها - قد تسلطت على النص الشرعي لتفرض ما يتراءى لك على أن الدليل ينص عليه ، فإننا في حل من الحوار معك ، لأنه عندئذ مراء .

غضب المدعي وقال : إن النصوص التي تحرم اتخاذ الكافرين أولياء كثيرة معلومة ، منها قول الله عز وجل { **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ...** } .

قال السائل : هذه الآية لا تدل على ما تدعيه ، لأنها تتحدث عن حالة " حرب " ، ثم أن اتخاذ الذين يحاربون الله والذين آمنوا أولياء يعني : تزويدهم بأسرار المسلمين ، والتجسس عليهم لحساب المعتدين ، ولا ينهى الإسلام عن حسن المعاملة والتعامل بالقسط مع غير المسلمين ، ويدل على ذلك سياق الآية التي ذكرتها وما جاء بعدها ؛ وأرجو أن تتدبر قول الله عز وجل { **ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول و إياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل }[الممتحنة:١] وقوله تعالى في السورة نفسها بعد الحديث عن المواجهة ومتطلباتها : { لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون** } [الممتحنة:٨-٩] .

ابتسم المدعي ابتسامة استغراب وقال : لقد قلت لكم إننا سنختلف في إدراك معاني الدليل ، ولا سبيل إلى إقناع المتشبثين بآرائهم المدافعين عن أخطائهم !

قال السائل : ألا ترى أنك أعطيت نفسك حق الفهم ومنعته غيرك ، وسمحت لنفسك بتأثيم أخيك وتجريمه بغير دليل يصح الاعتماد عليه ؟!. وبما أنك لست من أهل العلم ، فأرجو أن تذكر لنا أين قرأت هذا الذي تدعيه في هذه المسألة ؟

قال المدعي : اقرأ إن شئت في كتب التفسير !

فقال السائل : وأين نجد ما ذكرته في كتب التفسير ؟!

فرجع المدعي إلى القول : لقد ذكرت لكم الدليل من القرآن ولم تقتنعوا ، فهل ستقتنعون بقول مفسر ؟!

قال السائل : إن أمرك غريب ! ، فكيف نصل إلى معرفة حكم الشرع في القضية موضوع الحديث ؟!.

أجاب المدعي : اسألوا أهل العلم !

فقال السائل : ولِمَ لا تسأل أنت حتى تتأكد من صحة معلوماتك قبل الهجوم على إخوانك بهذه الطريقة المؤذية ؟!

انفعل المدعي وقال : وماذا سيكون موقفك ، وموقف صاحبك ، إذا كان ما فعله حراماً ؟!! .

أجاب السائل : أما أنا فأتعلم هذه المسألة ، وأما (فلان) فعليه ألا يرجع إلى ما فعله ثانية ويستغفر الله تعالى . بقي أن نعرف موقفك أنت إذا تبين أن ما ظهر لك أنه حرام ليس حراماً ؟!

قال المدعي : لا شيء أتعلم !

فقال السائل : ألم تنتبه إلى الفرق بينك وبين (فلان) ؟! لقد صنع ما صنع لأنه لا يعلم أن ما قام به محظور - وهذا إذا كان الحكم كذلك - أما أنت فتدعي أنك تنقل عن الله تعالى حكماً في حادثة ، وهنا أجد نفسي مضطراً إلى توضيح مجموعة محاذير وقعت فيها :

١. لقد سمحت لنفسك - على الرغم من محدودية علمك - بأن تحكم على أخيك بالخطأ وليس لديك دليل واضح على الأقل .

٢. وارتكبت خطأ بإساءتك الظن بإخوانك حين أشرت مراراً إلى رفضهم المسبق لما تقول .

وأسأت حين طرحت هذا الموضوع أمام مجموعة من الناس ، وكان الأولى - إن كانت لك لديك نصيحة بدليلها - أن تكون بينك وبين أخيك سراً . لأن معظم الحاضرين غير مؤهلين لتصور الحكم الشرعي المستنبط من الدليل وإنزاله على الحادثة محل النزاع ، وهذا يبلبل العلاقات ويترك في النفوس بقايا لا تحمد عاقبتها .

لقد سقت هذه القصة التي شهدتها منذ سنوات لأنبه إلى خطورة التسرع في الحكم على أعمال الآخرين ، لأنه ينطوي على مخالفات شرعية كثيرة منها : سوء الظن بالمسلمين ، والتطاول على كراماتهم ، وإشاعة فقه الغيرة المفتقرة إلى علم متين ... وأشدها خطورة : احتمال الوقوع في الكذب على الله تعالى أو على رسوله ﷺ ، فالقول بغير علم قرين الشرك.

ولنا درس بليغ فيما وقع فيه الخوارج ، الذين كانوا يرون أن القرآن ينص على ما يزعمون ، وكانوا يكثرون من إيراد الآيات ، ومع ذلك فقد كان ابن عمر يراهم شرار الخلق ، لماذا ؟ لأنهم جاؤوا إلى آيات نزلت في الكافرين فجعلوها في المؤمنين ، وكانوا يتوهمون أن الذي يرد فهمهم ويرفضه إنما يرد كلام الله عز وجل !!

فيا معشر الدعاة ... والشباب ... تريثوا في الحكم على ما يقوم به إخوانكم ، ولا تتسرعوا في الحكم ، واجتنبوا الكلام الجارح ، واعلموا أن القلوب مزارع فازرعوا فيها طيب الكلام ، واحملوا أنفسكم على حسن الفهم ، وحسن التعامل مع المخالفين ، فإن في ذلك خيراً لكم وللمسلمين وللناس أجمعين.

وليخشن الذين يتسرعون في إصدار الأحكام من غير بصيرة كافية أن يدخلوا في معنى قول الله عز وجل :

{ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون } [الأعراف: ٣٣].